

معالم الأسرة القوية من خلال قصة نبي اللّه زكريا وأسرته.

د / محسن عبد العظيم بدوي الشاذلي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد ـ كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات ـ جامعة الأزهر

١٤٤٣ هـ ـ ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه وبعد ،

فهذا البحث الموسوم ب **(معالم الأسرة القوية من خلال قصة نبي الله زكريا وأسرته)** أعددته للمشاركة في المؤتمر العلمي الدولي الأول لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات ـ تحت عنوان العلوم الشرعية في ضوء الوثائق الأزهرية

ويتمثل الهدف من هذا البحث في رسم خريطة إصلاحية للأسرة فيما يتعلق باختيار شريك الحياة والعلاقة بين الزوجين وتربية الأولاد ، من خلال قصة نبي الله زكريا وأسرته .

اتبعت فيه المنهج التحليلي الوصفي لأحداث القصة ملتزما فيها بما جاء في القرآن الكريم من آيات تروي أحداث القصة المذكورة .

وكانت أبرز النتائج :

أولا : التأكيد على سلامة المنهج القرآني في الوقاية من المشاكل قبل وقوعها ، وعرض أنسب الحلول لها متى وقعت .

الثانية : التأكيد على تنوع وغزارة القصص القرآني وما يستفاد منه من دروس وعبر تناسب مختلف الأشخاص والأحوال والأزمنة والأماكن .

الثالثة : التأكيد على سلامة موقف الأزهر من الأسرة ، ورؤيته الثاقبة في ما وضعه من وثائق ، تتضمن علاجا لكثير من مشاكل العالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

الرابعة : التأكيد على أن أهم جزء في المجتمع هو الأسرة ، إن صلحت صلح المجتمع كله وإن فسدت فسد المجتمع كله .

الكلمات المفتاحية : الأنبياء – القصة القرآنية – معالم – الأسرة – المجتمع .

Research Summary

Praise be to God, and prayers and peace be upon the Messenger of God, his family and companions, and those who are loyal to him and follow his guidance and after,

This research, tagged with **(The Milestones of a Strong Family through the Story of the Prophet of God Zakaria and his Family)**, I prepared to participate in the first international scientific conference of the College of Islamic and Arabic Studies for Girls in Sadat City - under the title of Sharia sciences in the light of Al-Azhar documents

The aim of this research is to draw a reform map for the family with regard to choosing a life partner, the relationship between spouses and raising children, through the story of the Prophet of God Zakaria, peace be upon him, and his family.

In it, I followed the descriptive analytical approach to the events of the story, adhering to the verses that were mentioned in the Holy Qur'an that narrate the events of the aforementioned story.

The most prominent results were:

First: Emphasizing the integrity of the Qur'anic approach in preventing problems before they occur, and presenting the most appropriate solutions to them when they occur.

Second: Emphasis on the diversity and abundance of Qur'anic stories and the lessons learned and lessons that are appropriate for different people, conditions, times and places.

The third: Emphasizing the soundness of Al-Azhar's position on the family, and his insightful vision in the documents he put together, which include a treatment for many of the world's social, political, and economic problems.

Fourth: Emphasizing that the most important part of society is the family.

Keywords: Prophets - Quranic story - landmarks - family - society

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . ﷺ ، وبعد

فالمطالع لآيات القرآن الكريم يجد دعوة متكررة حثيثة لتدبر معانيه ؛ لاستخراج أحكامه وتنفيذها في دنيا الناس ، ويجد كذلك تنبيه القرآن المتكرر للنظر في القصص القرآني خاصة ؛ إذ فيه من العبر والدروس ما تستلهم به الأمة حلول مشاكلها وعلاج أمراضها

والمجتمعات البشرية تعاني –منذ زمن– تصدعات في مجالات شتى ، جعلتها ترجع القهقرى رغم امتلاكها أدوات التقدم والرخاء

والأزهر الشريف ، باعتباره أكبر مؤسسة دينية إصلاحية في العالم –إذ يحمل الوحي في يمينه ودعوة الإصلاح في يساره– وهو يرى هذه الحال التي صار إليها المجتمع البشري لم يقف مكتوف الأيدي كالعاجز العيي ، انما دعا العالم كله إلى ضرورة إصلاح ما به من تصدعات ، وعلاج ما به من داءات ، ووضع يده على موطن الألم ، حين أكد أن (الأسرة) هي بداية الحل لكثير مما بالمجتمع من مشاكل ، فهي للمجتمع كالقلب من الجسد ، إذا صلحت صلح ، وإذا فسدت فسد .

وهذا المؤتمر العلمي الدولي الذي تتبناه كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات ، قد جعل من ضمن محاوره (بناء المجتمع الإسلامي في ضوء الوثائق الأزهرية) فعزمت على أن أعود لقصص القرآن الكريم ، واخترت منها قصة نبي الله زكريا عليه السلام وأسرته ، فطالعتها وتأملت ما فيها من توجيهات قرآنية للأسرة بشكل عام ، سائلا المولى عز وجل أن يشرح صدري ويفتح لي كنوز كتابه ؛ لعلي أضرب بسهمي –مع المصلحين– فأصيب خيرا بما كتبت أو بما تعلمت ، **جعلته في تمهيد ومبحثين وخاتمة**

جاء التمهيد بعنوان **لماذا قصص الأنبياء** وتناولت فيه : وظيفة الأنبياء ، وبيان موقف الشريعة الإسلامية من التكليفات الواردة في قصص الأنبياء السابقين

وكان المبحث الأول: بين يدي قصة نبي الله زكريا، تناولت فيه ارتباط هذه القصة بقصة السيدة مريم ، ثم تحديد أبطال هذه القصة ، وبيان أسمائهم ، ومواطن ذكر هذه القصة في القرآن الكريم ، ثم سردا لأحداثها مرتباً ترتيبا زمنيا. وجعلت ما ورد من آيات في سورة آل عمران هو الأصل ، وما جاء في السورتين الأخريين كالتكميل لها .

وكان المبحث الثاني عن **(معالم الأسرة القوية من خلال آيات القصة)** وتناولته في خمسة مطالب

المطلب الأول : معالم الأسرة قبل تأسيسها ،

المطلب الثاني : معالم الأسرة بعد التأسيس وقبل الإنجاب ،

المطلب الثالث : معالم الأسرة القوية في العلاقة بين أفرادها ،

المطلب الرابع : معالم في تربية افراد الأسرة ،

المطلب الخامس : معالم أسرية عامة .

ثم كانت الخاتمة متضمنة أبرز النتائج وأهم التوصيات .

واتبعت فيه –أعني المبحث الثاني– الخطوات التالية :

أولا : صنفت المعالم أصنافا خمسة كما سبقت الإشارة في عناوين المطالب .

ثانيا : رتبت معالم كل صنف على حسب ورودها في أحداث القصة .

ثالثا : جعلت لكل مَعْلَم من هذه المعالم عنوانا جانبيا ، ميزته بلون قاتم .

رابعا : دللت للمَعْلَم –المذكور عنوانا– بما يؤكده من آيات القصة .

خامسا : شرحت معاني ما أوردته من آيات القصة كما جاءت في كتب التفاسير ، وعزوت ما نقلته إلى كتابه وقائله .

سادسا : ربطت واقع الأسرة المعاصر بهذا المعلم المستنبط من آيات القصة .

سابعاً : التزمت أصول البحث العلمي من عزو الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية ونسبة الأبيات الشعرية والنصوص إلى قائليها مع ذكر بيانات الطبعة في أول مرة .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أتبع فيه المنهج التحليلي كأداة لتوضيح المفردات والتراكيب القرآنية الواردة في القصة ، والمنهج التاريخي كأداة لترتيب أحداث القصة التي وردت في سور متعددة ، ثم المنهج الاستنباطي كأداة لربط المعاني الواردة في القصة القرآنية بواقع الأسرة المشاهد .

أسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وسامعيه وأن يغفر لي ما وقعت فيه من خطأ أو نسيان أو تقصير.

كتبه / محسن عبد العظيم بدوي الشاذلي

أستاذ مساعد – التفسير وعلوم القرآن –

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات

التمهيد

لماذا قصص الأنبياء ؟!

الجواب عن هذا السؤال يتضح من خلال النقطتين التاليتين ..

١. وظيفة الأنبياء.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشر اختصهم الله بفضله ، فجعلهم واسطة بينه وبين عباده ؛ ليتلقى العباد عنهم أوامر الله ، وتتلخص مهماتهم إجمالا في عدة أمور :

أولا : دعوة الخلق إلى التوحيد، وتقريرُ أدلته، وتقريرُ أدلة النبوةِ، والمعادِ، وإزالةُ الشبهات عنها، يدل لذلك قول الحق ﷻ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ **[الأنبياء: ٢٥]**

ثانيا : يبلغون الناس رسالات ربهم، ويبلغونهم ما أمرهم به ربهم، ويبلغونهم ما أنزل عليهم من كتاب الله، مبشرين أهل الطاعة بالجنة، ومنذرين العصاة بالعذاب والنار، ويدل على ذلك قوله ﷻ ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] قوله ﷻ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]

ثالثا: إقامة مصالح العباد، وإرساء العدل بينهم ، يدل لذلك التوجيهات الإلهية الواردة على ألسنة الأنبياء لأقوامهم في قصص القرآن الكريم ([١])، كما يدل له

[١]) مثل إنكار نبي الله هود على قومه الإسراف والمخيلة : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠] ونهي لوط عليه السلام قومه عن الفاحشة ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦] وأمر شعيب قومه بالإحسان في الكيل ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣]

قوله ﷻ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

ولذا فإن النظر في سيرهم والتأمل في قصصهم واخذ العبرة منها من قبيل الضرورة الدينية والبداهة الشرعية ؛ عملا بقول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ، وهو امتثال لمطلق الأمر الوارد في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٢. التكليفات الشرعية للأمة الاسلامية من خلال قصص الأنبياء

ما من نبي أرسله الله ﷻ –من لدن آدم ﷺ إلى محمد ﷺ – إلا كان يأتيه وحي من السماء مكلف بتبليغه للناس ، هذا الوحي يتضمن تكاليف ، من أطاع النبي والتزمها نجى ، ومن عصى نبيه ولم يلتزمها هلك.

وقد أنزل الله ﷻ على نبيه القرآن الكريم ، وكلفنا باتباعه وتنفيذ ما به من أوامر ، وكان مما جاء في هذا الكتاب الكريم قصص كثير من الأنبياء ، وجانب مما جاء به كل نبي لقومه من تكاليف وتشريعات ، فهل تعد هذه الشرائع التي جاء بها القرآن على لسان الأنبياء السابقين شرعا لنا يلزمنا العمل به باعتباره في كتابنا ، أم لا يعد كذلك باعتباره شرع من سبقونا وليس شرعا لنا ؟!! (١)

[١]) للعلماء في مسألة "شرع من قبلنا" ثلاثة مذاهب: المذهب الأول: شرع من قبلنا شرع لنا، وقال بذلك الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، وجمع من أصحاب الشافعي، وجمهور المالكية، وأكثر الحنفية ومنهم الشيخ أبو منصور الماتريدي، والقاضي أبو زيد الدبوسي، وشمس الدين السرخسي، وفخر الإسلام البزدوي، ومن المتأخرين: ابن الهمام وابن الحاجب، واختلف هؤلاء على القول به، فقيل: مطلقا ما لم ينسخ، وقيل: شرع لنا إن لم ينسخ، وثبت بالقرآن، أو ببيان رسول الله – □ -. لا بنقل أهل الكتاب، لأن التحريف والتبديل تطرق إلى الكتب السماوية القديمة.
المذهب الثاني: شرع من قبلنا ليس شرعا لنا: وهذا رأي جمهور الشافعية والمتكلمين، ثم إن هؤلاء اختلفوا في موجب المنع: فقالت المعتزلة منع من ذلك العقل، وقال غيرهم: بل المانع الشرع لا العقل.
المذهب الثالث: قول من قال شرع إبراهيم عليه السلام خاصة شرع لنا، وما سواه ليس بشرع لنا".
ولزيادة بيان في هذه المسألة انظر: أصول السرخسي (٢/ ٩٩) والبرهان في أصول الفقه (١/ ٣٣١) والمنخول (ص ٢٣١) والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٢/ ١٥٣) والإحكام للآمدي (٤/ ١٢٣)

الذي ينبغي التنبه إليه أن هذه الشرائع نوعان (أصول وفروع) ،

فالأصول :تشمل توحيد الله ، والإيمان بما أمر به ، ومكارم الأخلاق ، وعليه يحمل قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] وهذا القسم غير مقصود في كلام العلماء في مسألة (شرع من قبلنا).

والفروع :تشمل العبادات وأشكالها ، والحلال والحرام ونحو ذلك ، وعليها يحمل قوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ، وهذا هو محل الخلاف بين العلماء،

ومعظم ما جاء في قصص الأنبياء في القرآن الكريم هو من الأصول التي دعا إليها كل الأنبياء ؛ فلا خلاف فيها أصلا ،

أمر آخر أن القصة لم تكن يوما شكلا من أشكال التكليف المباشر ، بل كانت **إما تمهيدا** للأمر به بعد أن تألفه النفوس من كثرة سماعه ، **أو تدعيما له** بعد التكليف به ، **أو سوقا له** في صورة القصة

** فانظر مثلا قصة نبي الله شعيب ﷺ مع قومه ، قال ﷻ ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٧]

ومنتهى السول (٣/ ٥١) وتخريج الفروع على الأصول (ص ١٩٨) وكشف الأسرار (٣/ ٢١٢) والتلويح على التوضيح (٢/ ٢٧٦)

إن هذه السورة مكية ، والكلام عن الموازين والبخس فيها لم يكن مشهورا في مكة ، بل في المدينة ، كما أن صد الناس عن الدعوة بالتدبير والكيد لم يكن معروفا في مكة مثلما كان في المدينة ، وكأن هذه القصة جاءت لتطلع السامعين على بعض معالم المستقبل وطرف مما يجري فيه ، وتمهد لهم أنهم لا يجوز لهم –وإن وجدوا الناس سبقوهم– أن يبخسوا الحق أو يخسروا الوزن . حتى إذا نزل الشرع بالتكليف المباشر بعد ذلك وجد النفوس مهيأة له مستعدة لتنفيذه ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] وسورة الإسراء من أواخر ما نزل من القرآن بمكة .

** وانظر مثلا قصة نبي الله إبراهيم مع أبيه ، قال ﷻ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤١–٤٥] لقد نزل التكليف الأصلي للمؤمنين –قبل نزول هذه الآيات– بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، والأمر باتباع النبي ﷺ ، وكذا الأمر بمخالفة الشيطان ، والتحذير من الوقوع في غضب الرحمن ﷻ .. وجاء هذا الجانب من القصة ليدعم كل هذه التكاليف ويرسخها في النفوس .

** وانظر بعد ذلك في قصة لوط ﷺ ، قال ﷻ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[الأعراف:٨٠،٨١] ترى فيها تسفيها وتجريما لفعل الفاحشة التي كان يأتيها قوم لوط ، وكأن القرآن يخاطب العرب مباشرة من خلال هذه القصة : لا تقربوا الفواحش !!

** ثم أعد نظرا في القصص الثلاث –وفي نظيراتها– ستجد كل ما فيها حديثا عن الأصول لا الفروع .

ومن ثم فإننا حين ننظر في آيات هذه القصص –ومنها قصة زكريا ﷺ– فإننا نقرأ بين سطورها تكاليف إلهية ، أو دعائم لهذه التكاليف . سواء كانت هذه التكاليف (الأصلية) موجهة للسابقين صراحة ، أو مستفادة من عباراتها .

وهذا ما نفهمه من كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ » (١) .

أمر ثالث : وهو سؤال يطرح نفسه بقوة –بعد مراجعة مذاهب السادة العلماء في مسألة شرع من قبلنا ، وعلى فرض أن بعض القصص تناول بعض فروع الشريعة–: هل تضمن القصص القرآني –بمفهومه (٢)– أمورا مخالفة لما في شريعة الإسلام ؟!! هذا ما –أكاد– أجزم أنه غير موجود في كل القصص القرآني ، فليس هناك حكم –صريح أو ضمني– جاء في قصة قرآنية ، وقع مخالفا لحكم شرعي في شريعتنا،

ولأننا مخاطبون بالقرآن الكريم كله –ومنه القصص– ،

ولأن القصص القرآني جاء يحمل العبر والتوجيهات ،

[1]) «صحيح البخاري» (٦/ ١٨٥) كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ بَابُ تَأْلِيفِ القُرْآنِ حديث رقم (٤٩٩٣) .

[2]) أقصد به ما جاء في ثنايا القصة فعلا كقصة موسى ، وإبراهيم ، وداود ونوح ... ، وليس ما جاء خبرا عن السابقين كما جاء في سورة المائدة مثلا من الكلام عن اليهود وصفاتهم وليس فيها شيء من قصصهم مع أنبيائهم .

فنحن بحاجة ماسة لدراسة القصص القرآني كله واستخراج مواطن العبرة فيه ؛ تحقيقا لقول الحق سبحانه وتعالى –في القصص عامة– : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وقوله سبحانه =في قصص الأنبياء خاصة– : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] .

المبحث الأول : بين يدي قصة نبي الله زكريا

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: شخصيات القصة

مما أعتقده –يقينا– أن الله ﷻ هو الذي اختار أسماء بعض أنبيائه قبل أن يولدوا ، ومما يدل على هذا :

أولا اسم أول نبي (آدم) ﷺ ، فمعلوم بداهة أن الله ﷻ هو الذي سماه، إذ لم يكن له أب أو أم ليسمياه .

ثانيا : ما جاء في هذه القصة أن الله ﷻ هو الذي سمى (يحيى) قال تعالى ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا)

ثالثا : وما جاء أيضا في قصة البشارة بعيسى ﷺ ، اذ جاءت متضمنة تسميته ، قال ﷻ ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾

رابعا : ما ورد في القرآن –في حق نبينا محمد ﷺ– أنه كان له هذا الاسم قبل أن يولد أصلا ، قال ﷻ على لسان عيسى ﷺ ﴿ ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾،

فإذا صح هذا في حق هؤلاء الأنبياء ، صح في حق غيرهم قياسا عليهم .

وإذا ثبت ذلك فإن لكل اسم منها معنى ، ولكل منهم من اسمه نصيب ، وهذا ينقلنا إلى السؤال التالي : ما معاني أسماء الأشخاص الواردة في القصة ؟ ([1])

---

[1]) للعلماء في ذلك مناهج ثلاثة ، فمنهم من يبحث عن معنى الاسم في اللغة الأصلية له دون النظر إلى علاقته باللغة العربية ، ومنهم من يبحث عن رابط بين معنى الاسم في اللغة المسمى بها واللغة العربية ، ومنهم من يفترض الأصل العربي للاسم فيبحث عن معناه في اللغة العربية فقط دون النظر إلى معناه الأول وهو ما اعتمدته في هذه الأسماء تحديدا . انظر –بتوسع– العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن صفحة ٤٠ وما بعدها لرءوف أبو سعدة .

أولا : معنى اسم زكريا ..

جاء في لسان العرب : "زَكَرَ الإناءَ مَلأَهُ ، والزُّكْرَةُ وعاء من أَدَمٍ، وفي المحكم : زِقٌّ يجعل فيه شراب أَو خل ، وقال أَبو حنيفة الزُّكْرَةُ الزِّقُّ الصغير ، الجوهري الزُّكرة بالضم زُقَيْقٌ للشراب ، وتَزَكَّرَ الشرابُ اجتمع ، وتَزَكَّر بطنُ الصبي عَظُمَ وحَسُنَتْ حاله ، وتَزَكَّرَ بطنُ الصبي امتلأَ ، ومن العُنُوزِ الحُمْرِ عنز حَمْراءُ زَكَرِيَّة وعَنْزٌ زَكْرِيَّةٌ وزَكَرِيَّةٌ شديدة الحمرة " ([1])

وعليه فأصل المادة العربية –الأقرب إلى هذا الاسم– تدور حول معنى الامتلاء وحسن الصورة ، والامتلاء : مناسب لحال سيدنا زكريا عليه السلام الذي امتلأت روحه بالرضا بقدر الله ، ولما تاقت نفسه للولد حتى عطشت ، دعا ربه فاستجاب الله دعاءه ، فامتلأت نفسه فرحا ورضا وايمانا.

وقد ذكر اسم نبي الله زكريا في القرآن سبع مرات في أربع سور (آل عمران، الأنعام، مريم، الأنبياء)

ثانيا : معنى اسم مريم ([2])..

"الرَّيْمُ البَراحُ ، والفعل رامَ يَرِيمُ إذا بَرِحَ ، يقال ما يَرِيمُ يفعل ذلك أَي ما يَبْرَحُ . ابن سيده : يقال ما رِمْتُ أَفعله وما رِمْتُ المكان وما رِمْتُ منه ورَيَّمَ بالمكان أقام به، وفي الحديث أَنه قال للعباس "لا تَرِمْ من منزلك غداً أنت وبَنُوكَ" أي لا تَبْرَح، وأَكثر ما يستعمل في النفي ، وفي حديث آخر فَوَالكَعْبَة ما راموا ، أي ما برحوا.

[1]) لسان العرب (٤/ ٣٢٦) لابن منظور الإفريقي طبعة دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

[2]) ربما لا ينطبق –ما قيل في تسمية الأنبياء– على اسم مريم ؛ لأنها ليست من الأنبياء ؛ ولأن ظاهر القرآن يوضح أن أمها هي من أسمتها (وإني سميتها مريم) ، وربما ينطبق عليها ؛ لدخولها في عموم المصطفين من عباده، ويكون كلام أمها باعتبار علمها هي واختيارها ، خاصة أن اسمها توافق مع ما جرى لها من أحداث في هذه الدنيا . والله أعلم .

والرَّيْمُ الزيادة والفضل يقال لها رَيمْ على هذا أي فضل ،
والرَّيْمُ الدَّرجة ، والرَّيْمُ النصيب يَبقى من الجَزورِ، وقيل هو عظم يبقى بعدما يُقْسَمُ لحم الجَزور والمَيْسِر ، والرَّيْمُ آخر النهار إلى اختلاط الظلمة ويقال :عليك نهار رَيْمٌ أَي عليك نهار طويل يقال قد بقي رَيْمٌ من النهار وهي الساعة الطويلة ، ورِيمَ بالرجل إذا قُطِعَ به ، والرَّيْمُ الظِّرابُ وهي الجبال الصغار" (١)
وعليه فمعنى الاسم (مريم) يدور حول معنى البقاء في المكان ، والفضل ، والانفراد –أو الزيادة– عن الأشباه ،ولو دققنا في المعاني المذكورة ، ونظرنا لأحوال مريم عليها السلام لوجدنا ارتباطا كبيرا بين المسمى (مريم) وبين تلك المعاني .. أما معنى (الاقامة في المكان والبقاء فيه) فقد كانت مريم عليها السلام ملازمة للمحراب ، مقيمة فيه ، إذ نذرت أمها ذلك (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا) ، وعليه : ف(مريم) أي (مقيمة) في المحراب.
وأما معنى الفضل والدرجة فقد كان لمريم عليها السلام نصيب من هذا المعنى ، حين أخبر ﷻ بقوله ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ ، وعليه : ف(مريم) ذات الفضل .
وأما معنى الانفراد والانقطاع عن الناس فقد كان لمريم عليها السلام من هذا المعنى نصيب كذلك حين (انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) ، وعليه : ف(مريم) أي المنعزلة عن الناس .
وأما أن الريم هي الجبال الصغيرة فقد كان لمريم عليها السلام نصيب من هذا ، إذ قال ﷻ في حقها (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) والربوة :«مَكَان مُرْتَفِع مِنَ الْأَرْضِ عَلَى مَا حَوْلَهُ» (٢) بما يصلح أن يطلق عليه (الجبل الصغير) .
وقد ذكر اسم مريم في القرآن الكريم أربعا وثلاثين مرة .
أما يحيى ، فمعنى اسمه واضح ، وقد ورد في القرآن خمس مرات

[١]) لسان العرب (١٢/ ٢٥٩)
[٢]) «تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر» (١٧/ ٥٣)

المطلب الثاني : ارتباط ذكر قصة زكريا عليه السلام بقصة السيدة مريم عليها السلام .

وقد اقترنت قصة سيدنا زكريا عليه السلام بقصة السيدة مريم في القرآن الكريم ، يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : "ذَكَرَ تَعَالَى هَذِهِ الْقِصَّةَ بَعْدَ قِصَّةِ زَكَرِيَّا الَّتِي هِيَ كَالْمُقَدِّمَةِ لَهَا وَالتَّوْطِئَةِ قَبْلَهَا ، كَمَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ وَكَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ " وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ. وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ".

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَرْيَمَ لَمَّا جَعَلَتْهَا أُمُّهَا مُحَرَّرَةً تَخْدِمُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَنَّهُ كَفَلَهَا زَوْجُ أُخْتِهَا أَوْ خَالَتِهَا نَبِيُّ ذَلِكَ الزَّمَانِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ اتَّخَذَ لَهَا مِحْرَابًا وَهُوَ الْمَكَانُ الشَّرِيفُ مِنَ الْمَسْجِدِ لَا يَدْخُلُهُ أَحَدٌ عَلَيْهَا سِوَاهُ، وَأَنَّهَا لَمَّا بَلَغَتِ اجْتَهَدَتْ فِي الْعِبَادَةِ فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ نَظِيرُهَا فِي فُنُونِ الْعِبَادَاتِ، وَظَهَرَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَحْوَالِ مَا غَبَطَهَا بِهِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهَا خَاطَبَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِالْبِشَارَةِ لَهَا بِاصْطِفَاءِ اللَّهِ لَهَا وَبِأَنَّهُ سَيَهَبُ لَهَا وَلَدًا زَكِيًّا يَكُونُ نَبِيًّا كَرِيمًا طَاهِرًا مُكَرَّمًا مُؤَيَّدًا بِالْمُعْجِزَاتِ، فَتَعَجَّبَتْ مِنْ وُجُودِ وَلَدٍ مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ، لِأَنَّهَا لَا زَوْجَ لَهَا، وَلَا هِيَ مِمَّنْ تَتَزَوَّجُ فَأَخْبَرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَاسْتَكَانَتْ لِذَلِكَ وَأَنَابَتْ وَسَلَّمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَلِمَتْ أَنَّ هَذَا فِيهِ مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ لَهَا فَإِنَّ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ فِيهَا بِسَبَبِهِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَى ظَاهِرِ الْحَالِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَعَقُّلٍ .

وَكَانَتْ إِنَّمَا تَخْرُجُ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي زَمَنِ حَيْضِهَا أَو لحَاجَة ضَرُورِيَّة" ([1])

[1]) قصص الأنبياء لابن كثير (٢/ ٣٨٥) تحقيق: مصطفى عبد الواحد الناشر: مطبعة دار التأليف – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م

المطلب الثالث : أحداث القصة

ذكرت قصة زكريا عليه السلام في ثلاث سور (سورة آل عمران ، سورة مريم ، سورة الأنبياء) ، وذلك على النحو التالي :

جاء ذكر القصة مختصرا في سورة الأنبياء ، حيث اقتصر فيها على بيان دعاء زكريا عليه السلام واستجابة الله ﷻ له ﴿**وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ **[الأنبياء: ٨٩-٩٠]** ويبدو -اذا وضعنا صيغ الدعاء الثلاثة في جانب واحد- أن هذا كان أول دعاء منه ﷺ بطلب الذرية ، إذ جاء هذا الطلب مطلقا دون أي أوصاف ، فلما رأى حال مريم عليها السلام وعاين قدرة الله في إكرامها (هنالك دعا زكريا ربه) مرة أخرى بطلب الذرية الطيبة ، ولا زال يلح على ربه في طلبه ويخلو بربه لحاجته حتى بلغ منه الكبر مبلغا ، فوهن عظمه وشاب شعره !! فكان الدعاء ثالثا ، ثم حصول المراد .

وبين النداء والاستجابة -في سورة الأنبياء- كانت هناك تفاصيل جاء بيانها في السورتين الأخريين، على التفصيل التالي :

قال ﷻ في سورة آل عمران : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

هذا الجانب من القصة لم يذكر إلا في هذه السورة ، ولعل ذلك أحد أسباب اطلاق هذا الاسم عليها ([1]) وهو بداية القصة .. ففي بيت (عمران) البيت الطاهر ذي النسب الشريف تعيش الزوجة –امرأة عمران– متعلقة بالله ﷻ محبة له ، هذا التعلق وتلك المحبة حملاها أن تنذر ولدها الذي حملت به –وتتمنى أن يكون ذكرا– لخدمة بيت العبادة ، وتطلب من المولى ﷻ أن يتقبل منها هذا المولود خادما في بيته ، لكنها فوجئت –حين وضعت مولودها– أنه أنثى ، فاستحيت من ربها ﷻ أن لا تفي بنذرها على الوجه الأتم ، لأن خدمة الذكور – نظرا لعدم طرو ما يمنعهم من العبادة– أتم من خدمة الإناث ، لكنها مع ذلك لم تتراجع عن أصل النذر (أن يكون ما في بطنها خادما لبيت العبادة) ، فلما وضعتها ، سمتها مريم ، وجعلتها في بيت العبادة كما نذرت لله .

ونشأت مريم في بيت العبادة على عين الله ﷻ وبرعايته ، إذ اختار لها زكريا ﷺ ليرعاها ويقوم على حاجتها حتى تكبر –وهنا يظهر وجه ارتباط القصتين ببعضهما– وقد كان زكريا رجلا طاعنا في السن ، متزوجا من امرأة لا تلد ، فكان يرى في مريم النموذج الصالح للولد الذي يفخر به والداه ، وكان يرى عليها من الكرامات الالهية ما يدهشه ، إذ كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها

---

[1]) قال الزركشي : «يَنْبَغِي النَّظَرُ فِي وَجْهِ اخْتِصَاصِ كُلِّ سُورَةٍ بِمَا سُمِّيَتْ بِهِ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَرَبَ تُرَاعِي فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْمُسَمَّيَاتِ أَخْذَ أَسْمَائِهَا مِنْ نَادِرٍ أَوْ مُسْتَغْرَبٍ يَكُونُ فِي الشَّيْءِ مِنْ خَلْقٍ أَوْ صِفَةٍ تَخُصُّهُ أَوْ تَكُونُ مَعَهُ أَحْكَمُ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ أَسْبَقُ لِإِدْرَاكِ الرَّائِي لِلْمُسَمَّى وَيُسَمُّونَ الْجُمْلَةَ مِنَ الْكَلَامِ أَوِ الْقَصِيدَةَ الطَّوِيلَةَ بِمَا هُوَ أَشْهَرُ فِيهَا وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ أَسْمَاءُ سُوَرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَتَسْمِيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِهَذَا الِاسْمِ لِقَرِينَةِ ذِكْرِ قِصَّةِ الْبَقَرَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهَا وَعَجِيبِ الْحِكْمَةِ فِيهَا» قلت : ويقاس عليه أن الحديث عن اصطفاء (آل عمران) واصطفاء نبي منهم لم يصرح به إلا هنا . والله أعلم . انظر: البرهان في علوم القرآن» (١/ ٢٧٠) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

طعاما في غير أوانه ، ودون سعي منها ، فيسألها : من أين ؟ وكيف ؟ فتقول : هو من عند الله !!

وعند هذا الحد من حياة مريم ﷺ يكتفي القرآن لينتقل إلى التركيز على قصة زكريا وحده وما كان من حاله

فيقول ﷻ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

فلما رأى زكريا قدرة الله ﷻ في أن يوجد الطعام في غير أوانه، ويوصله إلى مريم الضعيفة دون سعي منها، ثارت في نفسه أمنية ، أن تتدخل قدرة الله فيه هو وزوجه ؛ فيهبهما غلاما بعد ما فات منهما الأوان ، ويمنحهما اياه وان بلغهما الكبر منذ زمان !!

فتحركت فيه مشاعر الأبوة ، ورغبته أن يكون له ولد صالح يواصل حمل قضيته ، ويكمل تبليغ رسالته ، فلجأ إلى الله مسرعا ، وتضرع إليه طامعا أن يحقق له الله بقدرته ما تمناه ، فقال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة)

ومجموع ما ورد في القصة –عن هذا الدعاء– يدل أن زكريا ﷺ كان ملحا على الله تعالى فيه ، إذ جاء متكررا منه ﷺ بصيغ مختلفة ، فجاء في سورة مريم قوله ﷺ ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٤–٦] وجاء في سورة الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] كما يدل على أنه ص كان متحليا بتمام الافتقار والانكسار بين يدي الله سبحانه ، وهو ما يفهم من وصف الدعاء في مطلع سورة مريم (إذ نادى ربه نداء خفيا ...) ، **﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ**

مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [آل عمران: ٣٥ – ٤١)

وما جاء هنا إحدى صيغ التعبير عن إجابة المولى ﷻ لطلب نبيه وتحقيق ما تمناه ، وقد جاءت في سورة مريم بخطاب مباشر من الحق ﷻ (يا زكريا انا نبشرك بغلام ...) كما جاءت مصدرة بفعل الاستجابة في سورة الأنبياء (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) ، والذي نفهمه من مجموعها أن الله سبحانه أوحى لزكريا ﷺ عن طريق ملائكته أنه قد استجاب دعاءه ، وحقق له ما تمناه كما تعود منه ﷻ ، ودل على ذلك قوله ﷺ مناجيا ربه ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ قال البيضاوي : " بل كلما دعوتك استجبت لي ، وهو توسل بما سلف معه من الاستجابة، وتنبيه على أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً فإجابته معتادة، وأنه تعالى عوده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه.» ([١])

وكانت الهبة فوق ما تمناه زكريا ، إذ كانت أمنيته كما قال ﷻ (فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا) فتمنى الغلام متصفا بثلاث خصال ذكرت في الآية ، فوهب الله له غلاما ووصفه بثلاث عشرة صفة (لم نجعل له من قبل سميا ، ومصدقا بكلمة من الله ، وسيدا ، وحصورا ، ونبيا من الصالحين ، يأخُذ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ، وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا ، وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا، وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ([٢])!!

ولأن زكريا بشر ، ويرى حاله وحال زوجه لا يتأتى منهما الولد بنفسيهما ، سأل الله ﷻ سؤال المدهوش المتلهف لتحقيق هذا الطلب وهذه البشرى ، فقال (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

---

[١]) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٤/ ٥) المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

[٢]) سيأتي بيان معاني هذه الصفات بعد ذلك بإذن الله .

وجاء في سورة مريم (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) وسؤاله ﷺ في الموطنين يفهم منه استفهام تعجب ، وليس سؤال استنكار ولعل تقديم بيان حاله على حال زوجته هنا وتأخيره في سورة مريم لأنهما كلامان جاءا في وقتين مختلفين ، فالأول حين رأى قدرة الله ﷻ في شأن مريم (هنالك دعا) وهو يفيد أن دعوته كانت في زمان ومكان محددين ، فلما جاءته البشرى من الملائكة قال (أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر) والثاني كان عند حدوث الحمل فعلا «فأجاب الله دعاءه بعد أربعين سنة فيما ذكر ابن وهب وغيره ، وقيل: بعد ستين سنة» ([1])، فجاءته البشرى من الحق ﷻ ، فقال (وكانت امرأتي عاقرا ..) وكأن التعبير بالجملة الاسمية (وامرأتي عاقر) كان للاخبار عن حال قائم ، ودخول (كان) عليها (وكانت امرأتي عاقرا) للاخبار على أن عقرها كان في الماضي ، أما الآن فلم تعد عاقرا .

والجواب الإلهي يتضمن لفت النظر إلى قدرته ﷻ المطلقة وإرادته النافذة (الله يفعل ما يشاء) ، (هو علي هين) كما يتضمن تنبيه الانسان على أصله ، إذ لم يكن شيئا مذكورا (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا)

ومع ذلك لم يصبر قلب زكريا ﷺ المتشوق، ولم يكف لسانه الداعي، عن السؤال للاطمئنان ، فقال (رب اجعل لي آية) أي علامة أعرف بها حصول المراد وتحقق البشرى !! ويبدو أن هذا كان منه ﷺ خلاف الأولى ، فكيف يطلب علامة كالشاك في حصول المقدور !! فكانت الآية من نفسه ، قال الطبري :

[1]) «الهداية الى بلوغ النهاية» (٧/ ٤٤٩٣) لمكي بن أبي طالب – المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة – الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

«جمعَ تعالى ذكره بها العلامة التي سألها ربَّه على ما يبيِّن له حقيقة البشارة أنها من عند الله، وتمحيصًا له من هفوته، وخطإ قِيله ومسألته»([1])

فجعل الله له علامة ، وكلفه تكليفا ، فبين العلامة بقوله ﷻ (آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) وفي سورة مريم (آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) ([2])، وكان التكليف ذكر الله ﷻ (واذكر ربك كثيرا ، وسبح بالعشي والإبكار)

وتنوع التعبير في الموطنين –بين الليالي والأيام– يشير إلى أن المراد المدة الزمنية الكاملة لليوم المعروف([3]) لا جزء منه ، وقد كانت هذه (الآية) أن يحبس زكريا عن الكلام مع الناس فلا يتكلم إلا بالإشارة لمدة ثلاثة أيام ، وهنا يبدو كأن القرآن تعجل بعجلة زكريا ﷺ لتحقيق طلبه ، فرغم أن الحمل يستغرق أشهرا ، وله علامات تعرفها النساء ، إلا أن القرآن جاء بالفاء العاقبة المفيدة للسرعة (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم ..) وكأنه اختصر المسافة الزمنية كلها في لحظة ، بل قفز بالزمن وجعل من (يحيى) شخصا عاقلا مكلفا وخاطبه قائلا (يا يحيى خذ الكتاب بقوة ..)

---

[1]) «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (٦/ ٣٨٦)

[2]) ولعل تقديم ذكر الآية التي فيها الأيام –في آل عمران– على الآية التي فيها ذكر الليالي –في مريم– لأن التقديم هنا في الترتيب فقط ، أما في ترتيب النزول فسورة مريم أسبق في النزول لأنها مكية . والله اعلم .

[3]) (اليوم) من طلوع الشمس إلى غروبها ، قال (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات) (والليل) من غروبها إلى طلوعها، قال ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وقد جرت لغة العرب على استعمال (الليلة) أو (اليوم) –في الغالب– للدلالة على اليوم كاملا ، لا على جزء منه ، ومنه هاتان الآيتان في قصة زكريا ، فإذا اجتمعا معا كان كل منهم دالا على الجزء المخصوص له في اليوم كله ، قال ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧–١٨] مع تقديم الليل على اليوم ، وعلى هذا جاء أسلوب القرآن الكريم ، قال ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

وكأن القرآن يسطر بهذه الكلمات نهاية هذه القصة ، ويجعلها نهاية سعيدة ، إذ تحقق المقصود لبطلها الأول (زكريا) ﷺ وتطمئنه كذلك على ولده الذي انتظره بعد غياب طويل فتقول (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) .

وهكذا بدأت القصة بالاصطفاء وختمت بالسلام ، فسلام على عمران ، وسلام على امرأة عمران ، وسلام على مريم بنت عمران، وسلام على زكريا ، وسلام على يحيى ، وسلام على نبينا .

المبحث الثاني : معالم الأسرة القوية من خلال القصة

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : معالم الأسرة قبل التأسيس

١. فتش في شريك حياتك عن النسب الصالح ، (امرأة عمران) (مريم ابنة عمران) (وآل عمران) فإن النسبة إلى الصالحين شرف .

أيا كان نسب (عمران) هذا ([1]) فليس في عداد الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم على قول الجمهور ، ومع ذلك فقد وضع اسمه إلى جانب أسماء كبار الأنبياء (آدم . نوح ، إبراهيم) وذلك يدل على بلوغه في الصلاح درجة الأنبياء في صلاحهم واستقامتهم غير أنه لا يوحى إليه وليس بمعصوم مثلهم ، لذلك نسبت إليه امرأته في معرض التكريم (امرأة عمران) ونسبت اليه ابنته كذلك في السياق ذاته (ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها ..) لأن النسبة إلى الصالحين شرف ، وقد دأب القرآن الكريم على نداء اليهود بنداءين كثر ورودهما في القرآن الكريم ، فتارة يقول يا أهل الكتاب ، وتارة يقول يا بني إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب النبي عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وحين جادل مريمَ قومها نادوها باسم جدها الأكبر مبالغة في بيان تأصلها في ذرية الصلاح والطهر فقالوا يا أخت هارون ، يعنون به هارون النبي عليه السلام ، ولعل هذا سر نسبة هؤلاء الثلاثة في القرآن الكريم إلى هذا الرجل الصالح (عمران) ،

---

[1]) قال مقاتل: هو عمران بن يصهر بن فاهاث «٣» بن لاوي بن يعقوب وآله موسى وهارون. ، قال الحسن ووهب بن منبه: هو عمران بن أشهم بن أمون من ولد سليمان بن داود وآله مريم وعيسى. وقيل: هو عمران بن ماثان «١» ، وامرأته حنّة " انظر : تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣/ ٥٢) لأبي إسحاق الثعلبي أصل التحقيق: رسائل جامعية (غالبها ماجستير) لعدد من الباحثين – الناشر: دار التفسير، جدة – المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م

وهنا تأتي الوقفة الأولى مع الأسرة عن ضرورة التدقيق في اختيار الزوج ، لأن للأصل أثرا ومظهرا في فروعه ، والنسب اليه إما عز وفخار أو شين وعار ، لذلك جاء التوجيه النبوي (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) ([١]) (تنكح المرأة لأربع .. لحسبها ونسبها ..) وافتتاح القرآن الكريم هذه القصة بذكر هذا النسب – والتأكيد عليه أثناءها– فيه إشارة لا تخفى إلى أهمية هذه الخطوة من أجل بناء أسرة سليمة.

وإذا كان طبع الصاحب يؤثر في صاحبه فإن كل أب وأم يورثان أولادهما من بعدهما طباع الخير أو طباع الشر –إلا ما شذ عن هذه القاعدة– إن لم يكن بالتربية والتلقين فبالعادة والقدوة ، وقد جاء في قصة مريم عليها السلام –إلى جانب هذه الآية– ما يؤكد هذا المعنى ، حين قال لها قومها (يا أخت هارون ، ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا) ذكروا لها جدها ، واباها وأمها ، ولعل ذلك للتأكيد على هذا المعنى (إن العرق دساس). فإن صلاح الأولاد من صلاح الآباء في الغالب ، لذلك يأتي التعقيب القرآني : **(ذرية بعضها من بعض).**

٢. **زوجتك وولدك ، أمانة عندك ، ورعاية الأمانة وصيانتها من صفات الكرام (وأنبتها نباتا حسنا).**

تضيع الأمانة وتتبدد إذا وضعت عند من لم يقدرها ولا يحسن رعايتها ، لذلك فالأمانة ثقيلة وضياعها من علامات يوم القيامة ، وفي الحديث عن حُذَيْفَة ﷺ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»

[١]) جزء من حديث ذكره الشهاب في مسنده ، انظر : مسند الشهاب القضاعي (١/ ٣٧٠) حديث رقم ٦٣٨ المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي – الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٦

وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: " يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا ... " ([1]) وأثقل من حفظ الأمانة من الضياع أن تثمر وتنمى ؛ إكراما لصاحبها ورعاية لحقه ، وقد جاءت الأخبار عن رجل –كان ثالث ثلاثة– دخلوا غارا في جبل ، وانطبقت عليهم صخرة ، فتقربوا إلى الله بصالح أعمالهم ، فقال ذاك الرجل " اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ " ([2]) وقد وُضعت مريم عليها السلام أمانة في بيت المولى عز وجل فكانت مصونة مثمرة (وأنبتها نباتا حسنا) والفعل وإن أسند إلى الله ﷻ خلقا وحقيقة ، فإن القائم به والمباشر له هو زكريا ﷺ ، وما زكريا لمريم ؟ إنه راعيها ومربيها والوصي عليها ، وهكذا ينبغي أن يكون كل أب لأولاده ، وكل زوج لزوجته راعيا ومربيا ووصيا ، فيتقبل الأمانة –الزوجة والولد– بقبول حسن ، وينبتها نباتا حسنا .

٣. **الغاية الكبرى حفظ الدين لنيل رضا الله سبحانه ، والزواج إحدى الوسائل الموصلة لهذه الغاية.**

---

[1]) صحيح البخاري (٨/ ١٠٤) كتاب الرقاق بَابُ رَفْعِ الأَمَانَةِ حديث رقم (٦٤٩٧)

[2]) صحيح البخاري (٣/ ٩١) كتاب الإجارة – بَابُ مَنِ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَتَرَكَ الأَجِيرُ أَجْرَهُ، فَعَمِلَ فِيهِ المُسْتَأْجِرُ فَزَادَ، أَوْ مَنْ عَمِلَ فِي مَالِ غَيْرِهِ، فَاسْتَفْضَلَ – حديث رقم (٢٢٧٢)

كما أن تكوين الأسرة إحدى الخطوات الموصلة للغاية المنشودة .. لذلك لم يطلب زكريا إلى ربه أن يطيل عمره، بل طلب حفظ الدين الذي يحمله؛ فصاحب القضية يشغل باله إحياؤها وليس حياته، وينشغل بالغاية لا بالوسيلة : (وليا يرثني ويرث من آل يعقوب).

على حين يستاء كثير من الناس إذا تأخر في الزواج ، لأن المجتمع يصمه (بالعنوسة) ، ويستاء أكثر إذا تزوج وتأخر في الإنجاب ؛ لأن نظرات الناس وهمساتهم من حوله لا تكاد تتركه ، وكأن الزواج ، والإنجاب هما الغاية التي إن فاتت لا تدرك ، وإن فقدت لا تعوض !! وهذا وهم مبيد ، وفهم غير سديد ، ونظرة –من الفرد والمجتمع لهاتين القضيتين– تحتاج لتصحيح ..

نعم ، الزواج سنة الأنبياء ، وفطرة رب الأرض والسماء ، فطر الناس عليها ودعاهم إليها ، قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) وقال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) لكنه ليس هناك نص شرعي يفهم منه أن الزواج غاية في ذاته ، أو أنه فرض عين على الخلق ، وكلام النبي ﷺ واضح في هذا : ﴿ من استطاع منكم الباءة فليتزوج ﴾(١) ، ﴿ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني ﴾ (٢) وقل مثل ذلك في مسألة الإنجاب ، فهي كذلك ليست غاية الزواج وهدفه الأسمى والأول ، بل وسيلة –من وسائل عدة– لبناء مجتمع

[١]) متفق عليه ، انظر «البخاري» (٧/ ٣) كِتَابُ النِّكَاحِ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ □ : «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، لِأَنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ» وَهَلْ يَتَزَوَّجُ مَنْ لَا أَرَبَ لَهُ فِي النِّكَاحِ" حديث رقم (٥٠٦٥) ، و«مسلم» (٢/ ١٠١٨) كتاب النكاح - بَابُ اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَوَجَدَ مُؤَنَهُ، وَاشْتِغَالِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ حديث رقم (١٤٠٠)

[٢]) متفق عليه ، انظر «صحيح البخاري» (٧/ ٢) كتاب النكاح – باب الترغيب في النكاح – حديث رقم (٥٠٦٣) «صحيح مسلم» (٢/ ١٠٢٠) كتاب النكاح - بَابُ اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَوَجَدَ مُؤَنَهُ، وَاشْتِغَالِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ حديث رقم حديث رقم (١٤٠١) .

قوي ، تكون الأسرة المسلمة إحدى قلاعه ، وأفرادها كلهم حراسه ، فمن لم يستطعه فلا حرج عليه ، اذ هو فضل الله يؤتيه من يشاء ، ورزقه يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، قال ﷻ : ﴿ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠] ودليل ذلك أن "زكريا ﷺ نبي، وبلغ هذه السن ولم يرزق بالولد فدل ذلك على أن عدم حصول الولد ليس بنقص في الإنسان؛ وذلك أن الله ﷻ يختار الأنبياء - ﷺ - من بين قومهم فهم أكملهم من كل وجه، لا يختار من بهم عاهات ونقائص تزري بهم؛ لئلا ينتقصهم أقوامهم بسببه.

قد كانت هذه الرؤية واضحة أمام نبي الله زكريا ﷺ فلم يضجر لتأخر إنجابه حتى بلغه الكبر ، وحين طلب الولد لم يطلبه ليشبع عاطفة الأبوة عنده ، إنما طلبه ليكمل مسيرة الرسالة الإصلاحية من بعده، فالذي كان يشغله هو الغاية الكبرى لا الوسيلة الموصلة إليها ، والذي يشغله أن تتحقق الغاية بغض النظر عمن يحققها أو متى يحققها ، وهكذا ينبغي على الزوجين فهم هتين القضيتين . فما قدره الله نافذ لا يمنعه مانع، ومن يراجع آيات القصة يجد فيها (الله يفعل ما يشاء)، (الله يخلق ما يشاء) (قال ربك هو علي هين)،

وهنا يؤكد جمهور المفسرين على أن زكريا ﷺ قصد بهذا الدعاء أن يوجد من عقبه من يقوم بأمر الله ﷻ ، فمعنى قوله ﷺ يرثني ويرث من آل يعقوب :«: يرث نبوّتي ونبوّة آل يعقوب» ([1]) .

---

[1]) «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (١٨/ ١٤٧) وانظر : «معاني القرآن وإعرابه للزجاج» (٣/ ٣٢٠) «الهداية الى بلوغ النهاية» (٧/ ٤٤٩٥) «تفسير البغوي - طيبة» (٥/ ٢١٩) .

<u>المطلب الثاني : معالم الأسرة بعد الزواج وقبل الإنجاب</u>

١- (إني نذرت لك ما في بطني محررا) صدق النية في إصلاح الأولاد وحسن تنشئتهم مبدأ صلاحهم.

يخطئ من يظن أن تربية الأبناء تبدأ من يوم ولادتهم ؛ فإن الشارع الحكيم بدأ التربية من قبل ذلك حين أمر الزوج أن يحسن اختيار زوجته والعكس ، وهذه هي الخطوة الأولى ، وتأتي الخطوة الثانية في صدق نية الزوجين وصحة عزيمتهما أن ينشئا أولادهما على الطاعة والتدين ، وها هي امرأة عمران تعلنها صريحة مدوية صادقة (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا) وهو إجمالٌ لكلامٍ ، بسْطُه : هو لك ، سأوجهه لخدمتك ، سأضع قدمه على طريقك ، سيكون من خدام بيتك ، لن ألزمه بخدمتي حتى يفرغ لخدمتك ، فلما صدقت نيتها صحت تربية مولودها فكانت (مريم) .

إن آمال الآباء في أولادهم تسهم كثيرا في تركيب شخصية الأبناء وتشكيلها ، فهذا يريد لولده القوة ، وهذا يريد لولده المال ، وهذا يريد لولده النفوذ ، وآخر يريد له العلم .. ولكل وجهة هو موليها !! وأغلب ما يعانيه آباء وأمهات هذا الزمان أنهم لم يجدوا من أولادهم البر الذي كانوا يرجونه منهم حال كبرهم ، ذلك أنهم لم يتمنوا –ولم يعملوا على – أن يربوا أبنائهم للدين وعلى الدين إنما كان همهم أشياء أخر لا تسمن ولا تغني من جوع ، فما أحوجنا أن نحسن القصد والنية في تربية الذرية حتى يكونوا لنا خيرا في الدنيا وسعادة في الآخرة .

٢- الهدية علامة حب، يبذلها المحب على قدر طاقته، وقبول المحبوب لها كرم منه وجبر لخاطر حبيبه (فتقبلها ربها بقبول حسن).

لم يكلف الشرع المرأة بحضور الجمع والجماعات ، وجعل ذلك حكما خاصا بالرجال ، وإذا كان هذا هو الأصل فوجود امرأة تقيم بشكل كامل في دار للعبادة هو استثناء خص الله به مريم عليها السلام وأكرم به أمها ، إذ نذرت مولودها – الذي لا تعرف نوعه، وتتمنى أن يكون ذكرا- لخدمة دار العبادة ؛ تقربا إلى الله سبحانه ، وحين وضعته وتبين لها أنها أنثى –والله أعلم بما وضعت- اعتذرت

لربها أن (الهدية) التي انتظرتها لا تليق بالحال الذي ترغب فيه ، ولكن الله عز وجل –لعلمه بحبها وصدقها في القرب منه– قبل هديتها (فتقبلها ربها) ليس قبولا عاديا ، إنما (بقبول حسن) ثم رعاها (وأنبتها نباتا حسنا) ، وهكذا ينبغي أن يصنع المحبون .

ويصح أن يقال مثل هذا على الزوجة ، فقد كانت في بيت أبيها فتاة مكرمة منعمة ، ثم انتقلت لبيت الزوجية لتتعاون مع زوجها –في ظل المودة والرحمة– على إنشاء أسرة صالحة ، فكما أن للزوج عليها حقوقا فلها كذلك عليه حقوق ، ولأنهما بشران ، وليسا كاملين ، بل في كل منهما جوانب نقص ، فينبغي على الآخر أن يتغافل عنها أو يتقبلها ، والزوج أولى بهذا السلوك مع زوجته ، كما قال ﷺ «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» ([1]) فليتقبلها زوجها بقبول حسن ، ويعاشرها بالمعروف ، ويعاملها كما يحب أن يعامل ختنُه كريمتَه بعد ذلك ..

٣– إذا أراد الله بعبد خيرًا هيأ له من يربيه، ويحسن رعايته (وكفلها زكريا).

ليست مهمة الأب –أو من يقوم مقامه– قاصرة على أن يوفر لقمة العيش لأولاده، فتلك مهمة يقوم بها الحيوان الأعجم والطير الذي لا عقل له، إنما مهمته أن يرعاه رعاية تامة، فيحرص على تكوينه العقلي والسلوكي بقدر ما يحرص –وزيادة– على تكوينه الجسماني، وكلمة (كفلها) جامعة لمعان كثيرة في التربية فهي شاملة للستر، والحماية، والمشاركة([2])، فالكافل : القائم بأمر من يرعاه قياما كاملا من كل الوجوه ، ولعل هذا هو المعنى المقصود في قوله ﷺ "أنا وكافل

---

[1]) متفق عليه ، انظر : «صحيح البخاري» (٤/ ١٣٣) كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ بَابُ خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ حديث رقم (٣٣٣١) ، «صحيح مسلم» (٢/ ١٠٩١)

[2]) انظر : لسان العرب مادة كفل باب اللام فصل الكاف .

اليتيم في الجنة هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى ([1]) ولأن الولد لا يختار من يربيه فقد اختار الله لمريم عليها السلام من يربيها ، فجعل لها زكريا عليه السلام كافلا ومربيا ، وهذا من حسن تدبير الله لعبده إذا أراد به خيرا .

ولابد لكلا الزوجين أن يفهما هذا الأمر ويوطنا أنفسهم عليه ، فكل منهم يكفل صاحبه فيما خصه الله به ، وفي الحديث : «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا» ([2]) ولعل هذا ما أكده قول الله تعالى (هن لباس لكم وانتم لباس لهن) حيث إن للباس ثلاة وظائف (الستر ، والحماية ، والزينة) فيجب على كل من الزوجين أن يكون للآخر سترا وحماية وزينة.

٤- الإنصاف الإنصاف ..

في المشكلات الزوجية وغيرها اذكر أسباب المشكلة التي لديك مثل ما تذكر ما لدى الآخر ، فإن أكثر الخصومات بين الناس -ومنهم الزوجان- تقوم على محاولة كل طرف إظهار سداد رأيه وصلاح حاله وأنه هو الضحية ، مع محاولته الحثيثةِ تشويهَ رأي الطرف الآخر وإظهارَه في صورة المدين الظالم، وهذا أمر له خطورته على الأسرة خاصة، وعلاجه يكمن في ضرورة وجود الإنصاف، الظاهر بوضوح في هذا الجانب من القصة، فهاهو نبي الله زكريا -الزوج- يناجي ربه ﷻ بقوله : (بلغني الكبر وامرأتي عاقر).. (إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا.. وخفت الموالي وكانت امرأتي عاقرا) (وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) .. فتأمل تجد أنه يذكر ما عنده أولا قبل أن يذكر ما عند زوجته ،

---

[1]) «صحيح البخاري» (٨/ ٩) كتاب الأدب - بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا حديث رقم (٦٠٠٥) .

[2]) «صحيح البخاري» (٢/ ٥) كِتَابُ الأَحْكَامِ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَ {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} حديث رقم (٧١٣٨)

فهو إذ يذكر سبب مشكلة عدم الإنجاب من زوجته يذكر سببها من عنده هو أيضا .

٥- لا أنانية بين الزوجين !

بموجب عقد الزواج يصير الزوجان كالجسد الواحد (اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ([١])، وهذا مفهوم من وصف القرآن الزواج بالمصاهرة في قوله تعالى (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا) ومفهوم كذلك من وصف الزواج بالميثاق الغليظ في قوله تعالى (وكيف تأخذونه وقد أضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا) ومن قوله تعالى (وجعل بينكم مودة ورحمة) ومن ثم فلا مجال للأنانية أو النكران أو الإساءة بين الزوجين ، بل ايثار وتراحم واحسان حتى في حال الانفصال (تسريح بإحسان) (أو سرحوهن بمعروف) (وأسرحكن سراحا جميلا)

وهذا المعنى واضح أيما وضوح في هذه القصة ، إذ لم يتزوج زكريا عليه السلام بامرأة أخرى لينجب منها، أو بحث عن أمة ليتسرى بها وينجب منها ، ويختص هو بالولد ، بل طلب الولد لنفسه من زوجه العجوز التي قضى معها معظم حياته. (وكانت امرأتي عاقرا) (وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر) ومعلوم أنهما لم يكبرا فجأة !! أو أنه عليه السلام لم يكتشف أن زوجته لم تنجب إلا بعد ما بلغا هذه السن !! بل كان يعلم -كما يعلم اي زوج مكانه- أن هناك مشكلة في الإنجاب عند أحدهما أو كليهما ، ومع ذلك صبر على زوجه ، ثم حين دعا ربه لم يدع لنفسه بل كانت هي معه في دعائه ، ليفرح قلبها كما يفرح قلبه ، ولتطمئن نفسها كما تطمئن نفسه ؛ ليعلمنا أنه لا أنانية بين الزوجين ، وأن الحياة الزوجية تقوم على العطاء والحب قبل قيامها على المال والأثاث.

---

[١]) جزء من حديث في صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩) كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ ‌ بابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ حديث رقم (٢٥٨٦) .

٦- لا حرج على النفوس الصالحة أن تسأل ربها الذرية الصالحة: (هنالك دعا زكريا ربه).

أراد الله عز وجل -لحكمة لا نعلمها نحن- أن يرزق بعض خلقه بالذرية ويمنع بعضهم منها ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠] ، لكنه لم يمنع عباده (الذين لم يرزقوا الذرية) أن يطلبوا منه أن يخلف عليهم، إذ إنه سبحانه جعل حب الولد فطرة في النفس (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين) وجعل الأولاد من زينة الدنيا وبهجتها (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ، فلا حرج إذن أن يطلب الرجل أو المرأة أن يكون له ولد ، وخير ما يكون ذلك إن قرن بالصلاح ، فلا يطلب الولد لمجرد تحقيق حظ النفس أو تحصيل زينة الدنيا ، انما يطلبه صالحا ليجمع بين بهجة الدنيا وسعادة الآخرة ، وقد كان زكريا عليه السلام ممن منعه الله الذرية أول عمره ، ولعله لم يطلب الولد في بداية عمره تأدبا مع الله سبحانه، لكنه لما رأى (مريم) نموذجا طيبا للتربية الصالحة أمامه ، تحركت في نفسه الرغبة أن يخلف الله عليه بذرية صالحة تكون له عونا على دينه ، ومن بعده امتدادا لرسالته ، وهو ليس بدعا في هذا الطلب ، فمن قبله قال ابراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وعلى دربه سار الصالحون فكان دعاؤهم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فلا حرج على الزوجين أن يسألا الله تعالى من فضله مهما بلغ منهما السن وحالت دونهما قوانين الطب ، فالله ﷻ يفعل ما يشاء.

٧- إنجاب الولد غاية عامة الناس؛ فالمال والبنون زينة الحياة، وإنجاب الولد الصالح غاية خاصة الناس: (أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين).

يعد (الفرد الصالح) عاملا أساسيا في صلاح المجتمع كله ([1]) وعلامة فارقة تنبئ –في الأعم الأغلب– عن صلاح والديه ، وقد ركز الله في طباع البشر حب الذرية قال تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ..)، وجعل نبينا ﷺ الإنجاب غاية رئيسة من غايات الزواج (تناكحوا تناسلوا تكثروا..)، وعد العرب كثرة الذرية من أسباب القوة والفخر وقد حكى القرآن ذلك عنهم (ويمددكم بأموال وبنين) (وجعلنا لهم أزواجا وذرية) (كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا) (ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا) الى آخر هذه الآيات وهذه أمور يستوي فيها المؤمن وغير المؤمن ، لكن الأمر الذي يميز المؤمن أنه لا يبغي الذرية وفقط ، انما يبغي الذرية الصالحة ، كما قال تعالى عن خليله ابراهيم (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) وكما قال عن صفوة عباده (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين)، وهذا ما تقرره بشرى الملائكة لسيدنا زكريا (مصدقا بكلمة من الله ، وسيدا ، وحصورا ، ونبيا ، من الصالحين) وهو ما صرح به في دعائه في البداية (هب لي من لدنك وليا ... واجعله رب رضيا) .

٨– ليس العبرة بكثرة الأولاد، بل بصلاحهم وفلاحهم، فيحيى ـ الوحيد ـ كان يعدل جماعة: (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة).

هنا فائدتان تؤخذان بعين الاعتبار ، الأولى : إذا سألت الله فاسأل على قدر قدرته سبحانه لا على قدرتك انت ، وهي مستفادة من تدبر حال زكريا عليه السلام الصحية والعمرية ، وكيف أنه –بهذه الحال– لا يستطيع أن ينجب ، ومع ذلك حين يسأل الله سبحانه لا يسأله ولدا واحدا ، بل يسأله (ذرية) وهي كلمة تدل على الكثرة كما لا يخفى ، والفائدة الثانية : أن العبرة بالكيف لا بالكم ، فالله سبحانه حين أجاب دعاء زكريا أعطاه (ولدا واحدا) لكنه يعدل أمة ، إذ بارك الله

[1]) وهو –أعني إعداد الفرد الصالح– ما ينبغي أن تقوم به الأسرة ؛ حتى تخرج للمجتمع فردا يعرف كيف يتعامل مع الآخرين في المجتمع .

فيه (وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لدنا وزكاة، وكان تقيا، وبرا بوالديه، ولم يكن جبارا عصيا) فكأن رب العزة سبحانه جمع في هذا الولد الواحد صفات الذرية الصالحة كلها. ومن هنا فإن ولدا واحدا أو ولدين ، يحسن الوالدان تربيتهما وتنشئتهما ، خير وأقوم من عشرة منهم لا يستطيع لهم الآباء تربية ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا .

المطلب الثالث : في العلاقة بين أفراد الأسرة :

١- سل وتثبت ، وأعط فرصة للآخر يجيب (يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله).

لم يشك زكريا ﷺ لحظة في مريم وطهارتها ، لكنه تعجب: كيف يكون هو من يكفلها وكلما دخل عليها وجد عندها طعاما لم يأتها هو به !! وكان عليه – انطلاقا من مسئوليته عنها- أن يسألها: أنى لك هذا ؟!! وهذا هو الجزء الأول من الدرس لكل راع استرعاه الله رعية : اسأل وتحر واعرف مصدر ما عند أولادك حلال هو أم حرام ؟ بذلوا فيه المال أم بذلوا ما هو أغلى من المال !! فالراعي الناصح الشفوق لا يقبل أن يطعم أولاده من حرام ؛ لأنه يعلم أن " لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت " ([1]) ولأن يجوع الإنسان يوما ويشبع يوما ثم يلقى الله فيدخله الجنة جزاء صبره ، أكرم له عند ربه من أن يأكل ملء بطنه حراما ثم يلقى الله فيلقيه في النار ، **والجزء الآخر من الدرس هو في جواب مريم** : "**(قالت هو من عند الله)** إن الوضوح في السؤال من زكريا (أنى لك هذا؟ استتبعه وضوح في الجواب منها (هو من عند الله) وإن الثقة التي بين المربي (زكريا) وبين ربيبته (مريم) لم تكن لتستدعي تفصيلا للجواب (كيف ؟ ومتى ؟) بل قالت : (هو من عند الله) وكفى !! وهو -بعد ذلك- جواب يشي بمدى تعلق مريم عليها السلام بربها وفيض كرمه عز وجل عليها !! فأين أولادنا من هذه الفتاة ؟ وأين أبوتنا من أبوتهم ؟!!

٢- كل ما تفكر به وتتمناه بيد الله، فلا تقدم شيئًا على لقاء الله (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي).

توصيف البشرى هنا لافت للانتباه ، إذ جاءته وهو (قائم يصلي ، في المحراب) فجاءت في أطهر مكان (المحراب)، وفي أشرف لقاء(الصلاة) فكأن الحق ﷻ يقول لكل من له حاجة : لا تنشغل عني أكفك حاجتك، والزم بابي تنل بغيتك ،

[1]) «صحيح ابن حبان» (٥/ ٩) ، وقال المحقق إسناده صحيح على شرط مسلم .

واترك لي الأمر أدبر لك حيلتك . وكأنه كرم الضيافة الإلهية الذي إذا ورد على النفس أدهشها ، فمن أكرم منه وهو الكريم !! جاء في تفسير ابن المنذر ::«قَالَ: حَدَّثَنَا جعفر، قَالَ: سمعت ثابتا، يقول: " الصَّلاة خدمة الله فِي الأرض، ولو علم الله شيئا أفضل من الصَّلاة مَا قَالَ: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي} "» (١)

٣- لا بأس أن يتشارك الأخيار في زف البشريات الطيبة؛

البشرى -كما جاء معناها في كتب اللغة- تعني الإخبار بوقوع ما يسر في المستقبل القريب او البعيد (٢) ، وعليه جاء استعمال القرآن لهذه المادة في كثير من آياته (٣) ،

وهذا السلوك -أقصد البشرى بما يسر- له وقع في نفس من سيقت إليه ، وقد جاء في حديث الثلاثة الذين خلفوا ، كيف أن الصحابة تسابقوا إلى زف البشرى بالتوبة للصحابة الثلاثة ، يقول كعب بن مالك ﷺ : ﴿ وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ،

---

[١]) «تفسير ابن المنذر» (١/ ١٨٥)

[٢]) انظر مادة (بشر) في : «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» (٢/ ٥٩٠) لأبي نصر الجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار – الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م . «الغريبين في القرآن والحديث» (١/ ١٧٩) المؤلف: أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (المتوفى ٤٠١ هـ) – تحقيق: أحمد فريد المزيدي – قدم له أ. د. فتحي حجازي– الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – السعودية – الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م وغيرهما

[٣]) الآيات ٢٥ ، ١٥٥ سورة البقرة ، و ٤٥ ، ١٧٠ سورة آل عمران ، و ٥٧ سورة الأعراف ، و١٠ سورة الأنفال ، وغيرها.

وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا، بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ » ([1])،

وقل مثل هذا في كل بشرى بخير ، فالمرء يستبشر برؤية السحاب ؛ فيأمل وقوع المطر ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ ، ويستبشر بنزول المطر؛ فيأمل إنبات الآرض ﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾

لذلك كانت (البشرى) بالخير خاصة من أعظم الأعمال ثوابا ، إذ إن من أفضل الأعمال إدخال السرور على قلب المؤمن بأي شكل من الأشكال ، وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ... ﴾ ([2])

وهنا تقرر الآية –ما يبدو أنه– حرص الملائكة الكرام على (ادخال السرور) على سيدنا زكريا والسيدة مريم، فرغم أن المنادِي من الملائكة واحد فقط ، غير أن القرآن الكريم قال (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) وقال: (فنادته الملائكة) ([3])!! وفي الموطنين جاء التعبير ب(الملائكة) جمعا ؛ لنفهم قيمة هذا الخير فنحرص عليه كما أظهرت الأية حرص الملائكة الكرام عليه .

---

[1]) متفق عليه : «البخاري» (٦/ ٦) ك المغازي – بَابُ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} حديث رقم (٤٤١٨) ومسلم – ك التَّوْبَةِ – باب حديث توبة مالك وصاحبيه حديث رقم (٢٧٦٩) .

[2]) «مسلم» (٤/ ٢٠٧٤) ك الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ– بَابُ فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ– حديث رقم (٢٦٩٩) .

[3]) قرأ حمزة والكسائي بالياء، أي جبريل– عليه السلام– وإنما صار مذكراً على معنى الجنس، كما يقال: فلان ركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وقرأ الباقون، فنادته على معنى التأنيث، لأن اللفظ لفظ الجماعة، والمراد به أيضاً جبريل أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى قرأ حمزة وابن عامر: إن

المطلب الرابع : في تربية الأولاد

١- المربي الحقيقي هو المولى ﷻ ، فليس ضعيفًا ولا ضائعًا من وضع الله محبته في قلوب الخلق، حتى إن مات أبواه (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم).

اجتمع في مريم عليه السلام عدد من مظاهر الضعف ، فهي أنثى وليست ذكرا ، ووحيدة لا أخ لها ولا أخت ، وهي -كما يفهم من الأحداث- يتيمة ، ومن ثم فالناظر في غدها يقول إنها ستكون فتاة بائسة بسبب يتمها ، ضعيفة بسبب نوعها ، ضائعة بسبب وحدتها !!! لكن الله سبحانه يرى لأحبابه ما لا يراه الناس ، ويدبر لهم ما يعجز عن تدبيره أو تخيله الناس ، فيضع سبحانه في قلب قوم مريم حبها فيتسابقون لكفالتها وخدمتها ورعايتها ، وكأن الله تعالى يقول لها : إن فاتك الأب الذي يرعاك فأنا أرعاك ، وإن حرمت الأخ الذي يسندك ويشد عضدك فأنا لك سند ومعين ، وإن كنت قد خلقت أنثى فإني قد جعلت قومك كلهم خدما لك !! فكيف يظن العبد بعد ذلك بنفسه ضعفا والله مولاه ؟!!!

٢- تنشئة الطفل على الثقة بما عند الله أكثر من الثقة بما عند العبد، وأن رزقه مضمون (هو من عند الله).

ذكر لنا القرآن الكريم بعض أشخاص غرتهم أموالهم وفتنوا بما آتاهم الله من فيض عطائه ، وساقهم ذلك إلى التنكر لفضل الله عليهم فقال أحدهم (إنما أوتيته على علم عندي) {القصص : ٧٨} وقال آخر (ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خير منها منقلبا) {الكهف :٣٦} ولا شك أن مثل هذه المقولة تنم عن غفلة شديدة في شخصية القائل ، كما تشي بغياب الناصح في وقت الطفولة تحديدا -إذ إن هذه الفترة العمرية هي فترة تكوين

الله يبشرك، بكسر الألف، ومعناه: فنادته الملائكة. وقالوا له: إن الله يبشرك» انظر : «تفسير السمرقندي = بحر العلوم» (١/ ٢١٠)

الشخصية- لذلك فاهتمام الآباء بتربية أولادهم في مقتبل العمر وغرس القيم فيهم لا شك له أثر كبير في حياتهم بعد ذلك، وهذا هو ما نلمسه في جواب مريم عليها السلام (هو من عند الله) إنها لم تقل مثلا : هذا مقابل خدمتي للمحراب ، أو هذا مقابل عبادتي وتنسكي ، أو هذا حقي الذي وعد الله به !!! انها تناست كل هذا وقالت الكلمة التي تدل على ما نشئت عليه في هذا المكان الطاهر مع ذاك النبي المربي الطاهر (هو من عند الله) .

٣- الحوار بين المربي ومن يربيه وسيلة للتفاهم، ودفع التهم، وحسن التنشئة: (قال.. قالت)...

يشكو كثير من الأولاد قلة -وأحيانا انعدام- الحوار بينهم وبين آبائهم ، وهي شكوى تزداد وتيرتها وتشتد خطورتها مع تطور وسائل (التواصل الاجتماعي) من ناحية ، ومع انغماس الناس في طلب المعاش ليلا ونهارا من ناحية ومع ازدياد المشاكل الأسرية وتفاقمها من ناحية ثالثة .. وفي هذا الجزء من القصة نلمح حوارا -وان كان قصيرا- بين المربي وربيبته ، هذا الحوار كفيل أن يوجد مساحة من الثقة بين الطرفين ، وكفيل -مع دوامه- أن يكشف جوانب الشخصية لكل من الطرفين فيعرف كل منهما ما يحبه صاحبه وما يكرهه ، ويعرف ما يفرحه وما يحزنه ، ويعرف ما يرضيه وما يغضبه فيسهل التعامل والتفاهم ، وتندفع التهم بأقل مجهود ، والقرآن الكريم مليء بهذه النماذج الحوارية المثمرة بين المربين وربائبهم قال تعالى : "وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " [البقرة: ١٣٢، ١٣٣] وقال تعالى : " {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [يوسف: ٤- ٥] وما حديث لقمان مع ابنه عنا ببعيد

٤- لا سند كالابن الصالح، فرغم أن زكريا عليه السلام رزق حب الناس من حوله، غير أنه كان يشعر بالوحدة؛ لذلك قال: (رب لا تذرني فردا). وقال ﴿ هب لي من لدنك وليا ﴾

عاطفة الأبوة والأمومة لا تدانيهما عاطفة ، فهما يبذلان للولد –عن حب ورضا– كل ما يستطيعان ، ويندفعان بالفطرة إلى حب ورعاية الأولاد، بل وإلى التضحية للأولاد بكل غالي ونفيس، فكما تمتص النبتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، وكما يمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشرة هشة، فكذلك يمتص الأولاد كل رحيق وعافية واهتمام من الوالدين، لذلك أوجب الله تعالى الإحسان إليهما والبر بهما، فإذا ما أنعم الله ﷻ على الزوجين بولد بار بهما حقا ، فهو السند الذي لا يعدله سند، إذ هو مؤازر لهما في حياتهما، مكمل لسيرتهما بعد وفاتهما، يرى كل منهما فيه ثمرة عنائه ، ويستشرف به سعادة آخرته ، إن سبق أحدهما صاحبه إلى أجله وجد في الولد البار العوض والسلوى ، وان مس أحدهما ضر وجد في نفع ولدهما ما ينسيهما مر البلوى ، لذلك كان التعبير القرآني دقيقا جدا في الموطنين ، حين قال ﴿ رب لا تذرني فردا ﴾ وحين قال ﴿ هب لي من لدنك وليا ﴾ والكلمتان –فردا ، وليا– في سياقهما يدلان بوضوح على أن الولد –البار– عضد وسند وأزر لأبيه ، فمعه لا يعرف طعم الوحدة ، ولا يعرف معنى الخذلان ، قال الزجاج «وقوله أيضاً " وليًّا " يدل على أنه سأل ولداً دَيناً، لأن غَيْرَ الدَّيِّنِ لا يكون ولياً للنبي عليه السلام» [1]

[1]) «معاني القرآن وإعرابه للزجاج» (٣/ ٣٢٠) المحقق: عبد الجليل عبده شلبي – الناشر: عالم الكتب – بيروت – الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٥- ربط الأهل -وهم كل من تعولهم- بالله سبحانه وبشرعه ، ومنع باب الشرور عنهم واجب كل رجل ولي أمر أسرة .. خاصة في الزمن الذي كثرت فيه الفتن وماجت فيه الشهوات والشبهات كأمواج البحر ،

تأمل هذه الجمل القرآنية من القصة : (دخل عليها زكريا المحراب) (وهو قائم يصلي في المحراب) (فخرج على قومه من المحراب)؛ تعلم أن ذاك رجل قلبه معلق بالمساجد، فانظر أي كرامة كانت له عند الله ﷻ!! ونتعلم أننا -كمربين- ينبغي أن تكون صلتنا بالله ﷻ وتعالى قوية ، وأن نربط أولادنا كذلك بربنا ﷻ، وأن يكون اهتمامنا بهذا الجانب أكثر وأسبق من اهتمامنا بالطعام والشراب والثياب والمسكن ؛ فكلها أمور بيد الله ﷻ وهو كافينا وكافيهم إياها ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، والحق ﷻ سائل كل راع عما استرعاه ؛ إذ أمره بحسن رعايته فقال ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] فمن ترك هذا الباب فقد ترك واجبا .

٦- اختيار الاسم الطيب للأولاد سنة الأنبياء والصالحين، وقديما قالوا: "لكل واحد من اسمه نصيب"، فاختر لولدك اسمه بعناية (لم نجعل له من قبل سميا).

من أبرز حقوق الأبناء على الآباء اختيار الاسم الحسن ،

وقد وجه النبي ﷺ أمته إلى ذلك ، فقد ورد عنه أنه غير أسماء بعض الناس إلى أسماء استحسنها هو ﷺ لهم ، فكان (برة) اسما إحدى زوجاته ، فسماها (جويرية) ، وكان لعمر بن الخطاب بنت اسمها (عاصية) فسماها (جميلة) ، وجاءه رجل يقال له (الأصرم) فسماه النبي ﷺ (زُرعة) ، وآخر كان اسمه

(العاص) فسماه النبي ﷺ (مطيعا) ... كما ورد عنه ﷺ أنه نهى عن بعض الأسماء ، كرباح ونجيح ، ونافع ، ورافع ، ويسار ، وبركة ، ([1])

وهذا توجيه -عملي وقولي- منه ﷺ أن تكون الأسماء محببة ، مستحسنة في الأذن، لا تدعو إلى مخالفة شرعية ، وتدعو إلى التفاؤل والبشر ،

وفي هذا الجزء من القصة يظهر لنا ان الحق ﷻ سمى المولود – النبي ، ولد النبي زكريا- يحيى ، وقال (لم نجعل له من قبل سميا) ليضع علامات للآباء في مسألة تسمية الأبناء ، أهمها :

أولا : لا مانع ان تختار الاسم قبل أن يولد المولود ، فالحق سبحانه سماه يحي قبل أن يولد ،

ثانيا : ان لم تهتد لاسم جيد فاترك أهل الثقة يختارون لولدك اسما صالحا ، فالله ﷻ سمى الولد لزكريا.

ثالثا : احرص ان يكون الاسم داعيا للتفاؤل بالخير ، كاسم (يحيى) الذي يتأمل فيه طول العمر .

رابعا : لا مانع ان يكون الاسم جديدا في مكانه أو زمانه (لم نجعل له من قبل سميا) شرط أن لا يكون به مخالفة شرعية ، كما هو مفهوم من فعل النبي ﷺ وقوله .

٧- يحتاج الأولاد إلى تنشئتهم على عدة صفات ، ليكونوا شخصيات نافعة مؤثرة في المجتمع ، من هذه الصفات (القوة، والحكمة، ورقة القلب، وطهارة النفس، وتقوى الله، وبر الوالدين، وحسن معاملة الخَلْق، فتلكم هي الأساس: (خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا، وبرا بوالديه، ولم يكن جبارا عصيا).

---

[1]) انظر في كل هذه الأسماء : «الجامع – ابن وهب – ت مصطفى أبو الخير» (ص١٠١ وما بعدها) بابُ الْأَسْمَاءِ ، «سنن أبي داود – ت الأرنؤوط» (٧/ ٣٠٣ وما بعدها) «باب في تغيير الأسماء» ، «شرح السنة للبغوي» (١٢/ ٣٣٦ وما بعدها) «بَاب مَا يكره مِن الْأَسْمَاءِ»

هذه أسس بناء الشخصية السليمة ، ويمكن تقسيمها ([1]) كما يلي :
أولا : مكاسب شخصية ، أي يكتسبها المرء بالتدرب عليها ومداومة أسبابها ، مثل (القوة) ، وهي مستفادة من المقطع الأول في قوله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وانما قلت إنها –أعني القوة– مكاسب شخصية؛ لتخصيصه عليه السلام بالنداء ، ودلالة الأمر الوارد بعد ذلك (خذ الكتاب) ، وهو أمر يدل على التكليف، والتكليف الشخصي –وان كان يلزمه عون الله لعبده– إلا أنه لا بد للعبد من تحصيله وكسبه بنفسه ، إذ لا نيابة فيه ، وقد جاء في تأويلات أهل السنة : « قَالَ بَعْضُهُمْ: خذ الكتاب بما قواك اللَّه وأعانك. وقَالَ بَعْضُهُمْ: خذ الكتاب واصبر على العمل بما فيه. وقَالَ بَعْضُهُمْ: خذ الكتاب بقوة، أي: بجدٍّ. ، قال أبو بكر الأصم: الجد: هو الانكماش في العمل، والقوة هي احتمال ما حمل عليه» ([2]) وهذه التأويلات تجعل كلمة (القوة) واسعة الدلالة لتشمل أنواعا عدة منها .
ثانيا : مواهب إلهية: (وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة)، ومجيء الضمير (نا) مرتين في هذا المقطع ، مسندا لرب العزة سبحانه يدل بوضوح أن ما اشتمل عليه منح إلهية ، لا تتأتى للعبد بمجرد اجتهاده وحمل نفسه عليها ، والحكم هنا –فيما أميل إليه– ليس النبوة ، انما "الفهم واللب والحكمة والعلم" ([3]) ، والحنان : الرحمة والمحبة ، وزكاة : «قَالَ بَعْضُهُمْ: زكاة، أي: صدقة تصدق بها

[1]) الذي دعاني إلى هذا التقسيم اختلاف الأسلوب في كل مقطع ، ففي المقطع الأول بدأ بالنداء وأتبعه فعل الأمر ، ثم عطف عليه المقطع الثاني مبدوءا بالفعل الماضي المسند إلى ضمير العظمة الراجع لرب العزة سبحانه ، وصدر المقطع الثالث ب (كان) المقدر اسمها (يحيى) وأخبر عنه بما بعد ذلك . والله أعلم .

[2]) «تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٧/ ٢٢٣):

[3]) المصدر السابق

على زكريا وزوجته في الوقت الذي لا يرجو فيه مثلهما الولد» ([1]) وقَالَ بَعْضُهُمْ: زكاة، أي: صلاحًا وما ينمو به من الخيرات. وجائز أن يكون الزكاة اسم كل خير وبركة، وهو كالبر من التقوى، كأنه قال: أعطيناه كل بر وخير"([2]) ويحتمل أن يكون المراد بالزكاة هنا (الطهر) ، وعليه : فالحكم ، والحنان ، والزكاة كلها مواهب من الله سبحانه يجتبي بها من يشاء من عباده .

ثالثا : مجهودات أسرية: وهي الواردة في المقطع الثالث : (وكان تقيا، وبرا بوالديه، ولم يكن جبارا عصيا)؛ وقوله تعالى (تقيا) أي عن جميع الشرور ، (وبرا بوالديه) أي طائعا لهما ، وهما صفتان تحتاجان من الأسرة أن يغرسا في نفس الولد بذرة التقوى وطاعة الوالدين ، فينشأ متحليا بهما متخليا عن أضدادهما فيكون برا تقيا ، ولا يكون جبارا عصيا .

فعلى الولد أن يحصل ما عليه، وعلى الأسرة أن تغرس بذرة الخير في أولادها، والله ينميها.

---

[1]) فيه مخالفة لنظم الكلام ، إذ يجعل (زكاة) غير منصوبة عطفا على (حنانا) ، انما يجعلها منصوبة لفعل غير مذكور ، وهو تفسير يحتاج إلى القول بتقدير فعل وفاعل أو تقدير (كان واسمها) ، والقاعدة : أن ما لا يحتاج إلى تأويل أو تقدير أولى من غيره .

[2]) «تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٧/ ٢٢٤

المطلب الخامس : معالم عامة

١. لا تعارض بين السيادة والصلاح: (وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين).

حفل القصص القرآني بنماذج من الشخصيات والأقوام مكنهم الله في الأرض وأعطاهم سلطة ومالا وقوة فجعلوا ما مكنهم اللله تعالى فيه وسيلة للفساد في الأرض وظلم الناس وإلحاق الضرر بهم ، وكثرت هذه النماذج حتى ارتبطت – في أذهان الناس– السيادة بالفساد ، وربما نجد تأكيدا لهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة) . على أن القرآن الكريم لم يمنع المسلم أن يكون سيدا ذا نفوذ وسلطان ، وصرح في هذا الملمح من هذه القصة بأنه لا تلازم بين السيادة والفساد ، وأن هذا التلازم –الذهني– ينفك إذا صحت تربية السيد من صغره على احترام الناس ومراعاة حقوقهم والالتزام بما عليه هو من واجبات ، فإن كان القصص قد حمل الينا نماذج لسادة وأقوام مفسدين ، كفرعون، وقارون، والنمروذ، وأصحاب الفيل، وقوم عاد، فقد حمل الينا كذلك نماذج لسادة مصلحين ، فهذا يحيى (سيدا .. ومن الصالحين) ومثله يوسف وطالوت ، وذو القرنين عليهم السلام.

٢. صلاح الزوجة بأن تنجب ـ إلى جانب صلاح خلقها ـ نعمة كبرى من الله على العبد تستوجب الشكر: (وأصلحنا له زوجه).

إصلاح الزوجة هنا له اكثر من معنى ، الأول –وهو الصحيح المشهور في الآية– أنها لم تكن تلد فحملت ثم ولدت ، «قَالَ قَتَادَةُ: كَانَتْ عَاقِرًا فَجَعَلَهَا اللَّهُ وَلُودًا» [١]

والثاني –وهو الأعم– إصلاح خلقها وطبعها لتستقيم لزوجها ، جاء في تفسير الثوري :«عَنْ عَطَاءٍ فِي قَوْلِهِ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زوجه لا قَالَ كَانَ فِي لِسَانِهَا طُولٌ»

[١]) «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٣٣٩) ، وانظر : «معاني القرآن للفراء» (٢/ ٢١٠) ، «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (١٨/ ٥٢٠) .

([1]) «وقال آخرون: كانت سيئة الخلق، فأصلحها الله له بأن رزقها حُسن الخُلُق» ([2]) ، والثالث : «أن جعلناها بحيث يرغب فيها زوجها ذات هيئة ومنظر؛ لأنه ذكر في القصة أنها بلغت في السن مائة غير شيء، والعرف في النساء أنهن إذا بلغن المبلغ الذي ذكر أنها بلغت زوجة زكريا يكن من القواعد اللاتي لا يرغب فيهن أحد، فأخبر أنه أصلحها وصيرها بحيث يرغب فيها، ذات هيئة ومنظر» ([3]) ، والنص القرآني على وجازته هنا يعطينا عدة إشارات ...

الأولى : أن صلاح حال (الزوج) -بالمعنيين الأولين- انما هو فضل من الله ﷻ وليس عن استحقاق من العبد ، وهذا مفهوم من اسناد فعل الاصلاح لضمير العظمة (وأصلحنا) ، وقد جعل الله في نبييه -نوح ولوط- مع زوجتيهما مثلا لتأكيد ذلك .

الثاني : أن (صلاح الزوجة) -بمعناه الثالث- لا يكون إلا للزوج ، فهو الذي ينبغي أن تتهيا (له) وتتصلح من حالها لأجله ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ .

الثالث : في ذكر الجار والمجرور (له) مقدما على المفعول ، إشارةٌ إلى أن الله ﷻ قد يخرق قوانين الكون لشخص ما ؛ لكرامته عنده ، وقديما قالوا : ولأجل عينٍ ألفُ عينٍ تكرم " ([4])

---

[1]) تفسير سفيان الثوري» (ص٢٠٤) وانظر : «تفسير القرآن من الجامع لابن وهب» (١/ ٩٢)

[2]) «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (١٨/ ٥٢١) ، وانظر : «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٤٦٥)

[3]) «تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٧/ ٣٧٢)

[4]) عجز بيت ذكره التنوخي (المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (ت ٣٨٤هـ)) في كتابه «الفرج بعد الشدة » (٥/ ٧٨) – تحقيق: عبود الشالجى – الناشر: دار صادر، بيروت عام النشر: ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، الْعسر أكْرمه ليسرٍ بعده ... وَلأَجل عين ألف عين تكرم ، ونسبه لسعد بن مُحَمَّد الْأَزْدِيّ ، وذكره صاحب

٣- ذِكْرُ الله علاج كل مشكلة، ودواء كل مهموم، وسلوى كل محزون، ونشيد كل محب: (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار).

أسهل عبادة وأخفها على المرء ؛ لذلك جاءت الدعوة إليها في القرآن الكريم مطلقة –غير مقيدة بعدد– فقال ﷻ ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وقال ﷻ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه: ٣٣-٣٤] وقال ﷻ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] وقال ﷻ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وقال ﷻ ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] وفال ﷻ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١] وقال ﷻ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠] ومن هذه الآيات نفهم أن ذكر الله ﷻ من أكبر الوسائل لتقويم النفس وضبطها ، وهو كذلك –الى جانب الأخذ بالأسباب – أكبر معين على حل المعضلات وتجاوز الأزمات ، وهذا مفهوم من أمر الله ﷻ لزكريا عليه السلام ﴿ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار ﴾ ومفهوم كذلك من كلامه ﵇ لقومه ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ .

«اللطائف والظرائف» (ص٢٠٦): بدون نسبة . ونسبه صاحب «خزانة الأدب وغاية الأرب للقاضي فتح الدين بن الشهيد – خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي:(٢٠٥ /٢) «

الخاتمة

وبعد ..

فبين يديك أربع وعشرون هداية أسرية مستخلصة من آيات هذه القصة المباركة ، فيها –لو تدبرناها– الوقاية لكثير من مشاكل بيوتنا ، تتناول الأسرة في مراحلها وأشكالها المتعددة ، وهذه أولى النتائج الفعلية لهذا البحث .

والثانية : أن القصص القرآني لم يكن أبدا للتسلية بل للعبرة والاتعاظ ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ .

الثالثة : أن مسالة (شرع من قبلنا) لا تتعلق –في الغالب– بالقصص القرآني ؛ لأن معظم ما فيه تكليفات أخلاقية وأصول عقدية .

الرابعة : سلامة موقف الأزهر من الأسرة ، ورؤيته الثاقبة في ما وضعه من وثائق ، تتضمن علاجا لكثير من مشاكل العالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

الخامسة : أهم جزء في المجتمع هو الأسرة ، إن صلحت صلح المجتمع كله وإن فسدت فسد المجتمع كله، ومن ثم فإن تكوين الأسرة دين ، والحفاظ عليها إيمان ، ومكافحة الأوبئة التي تهددها جهاد ، ورعاية ثمرتها من بنين وبنات كل ذلك من شعائر الإسلام .

<u>لذلك يوصي الباحث</u> بضرورة مراجعة القصص القرآني، وإعادة النظر في أحداثه، واستكشاف مدلول آياته؛ للإفادة منه في مختلف المجالات (الاجتماعية ، والأسرية ، والمالية ، والسياسية ..)

أسأل الله ﷻ أن يجعل هذه الصفحات في ميزان حسناتي ، وأن يتقبل مني هذا العمل ، ويغفر لي ما كان فيه من خلل أو زلل ، إنه بكل جميل كفيل ، وبالإجابة جدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مراجع البحث ومصادره مرتبة على حروف الهجاء

١. الإحكام في أصول الأحكام لابي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)

قوبلت على الطبعة التي حققها: الشيخ أحمد محمد شاكر – الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت

٢. الإحكام في أصول الأحكام للآمدي علي بن محمد الآمدي – علق عليه: عبد الرزاق عفيفي – الناشر: المكتب الإسلامي، (دمشق – بيروت) الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ

٣. أصول السرخسي – أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٨٣ هـ) حقق أصوله: أبو الوفا الأفغاني (رئيس اللجنة العلمية لإحياء المعارف النعمانية) الناشر: لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد بالهند– (وصورته دار المعرفة – بيروت، وغيرها)

٤. البرهان في أصول الفقه – لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ) المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة – الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م

٥. البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي – المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

٦. تخريج الفروع على الأصول محمود بن أحمد بن محمود بن بختيار، أبو المناقب شهاب الدين الزَّنْجاني (ت ٦٥٦هـ) – المحقق: د. محمد أديب صالح – الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٣٩٨

٧. تفسير ابن أبي حاتم = تفسير القرآن العظيم لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت

٣٢٧هـ) – المحقق: أسعد محمد الطيب– الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية – الطبعة: الثالثة – ١٤١٩ هـ

٨. تفسير ابن المنذر = كتاب تفسير القرآن – المؤلف: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت ٣١٩هـ) – قدم له ا.د: عبد الله التركي – حققه وعلق عليه الدكتور: سعد بن محمد السعد دار النشر: دار المآثر – المدينة النبوية – الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م

٩. تفسير البغوي (معالم التنزيل) = لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ) المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

١٠. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل» المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

١١. تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي –أصل التحقيق: رسائل جامعية (غالبها ماجستير) لعدد من الباحثين – الناشر: دار التفسير، جدة – المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م

١٢. تفسير السمرقندي = بحر العلوم – أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٣هـ)

١٣. تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن –المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله التركي – بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة – الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م

١٤. تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة–لأبي منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم – ط: دار الكتب العلمية – بيروت،–الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م

١٥. تفسير سفيان الثوري – أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (ت ١٦١هـ) – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

١٦. تفسير يحيى بن سلام – يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت ٢٠٠هـ) – تحقيق: الدكتورة هند شلبي– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان–الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م

١٧. تفسير القرآن من الجامع لابن وهب]. المؤلف: أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (المتوفى: ١٩٧هـ) – المحقق: ميكلوش موراني : دار الغرب الإسلامي – الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م

١٨. التلويح على التوضيح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت ٧٩٣هـ) الناشر: مكتبة صبيح بمصر– بدون تاريخ

١٩. خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي – تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (ت ٨٣٧هـ) – المحقق: عصام شقيو – الناشر: دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت – الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م

٢٠. سنن أبي داود – أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢ – ٢٧٥ هـ) – المحقق: شعيب الأرنؤوط – محمد كامل قره بللي – الناشر: دار الرسالة العالمية – الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

٢١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» لأبي نصر الجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار – الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

٢٢. صحيح ابن حبان = الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان – المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ) ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩ هـ) – حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط – الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٢٣. صحيح البخاري = .[الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري]. – المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي – المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر : دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) – الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ

٢٤. صحيح مسلم = أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ – ٢٦١ هـ) – المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي – الناشر: دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي – القاهرة (وصَوّرتْها: دار إحياء التراث العربي – بيروت).

٢٥. الغريبين في القرآن والحديث» – المؤلف: أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (المتوفى ٤٠١ هـ) – تحقيق: أحمد فريد المزيدي – قدم له أ. د. فتحي حجازي– الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – السعودية – الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م

٢٦. قصص الأنبياء لابن كثير تحقيق: مصطفى عبد الواحد الناشر: مطبعة دار التأليف – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م

٢٧. كشف الأسرار للبزدوي عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي (ت ٧٣٠هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ

٢٨. لسان العرب لمحمد بن منظور الإفريقي – طبعة دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

٢٩. مسند الشهاب القضاعي المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي : مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٦

٣٠. معاني القرآن وإعرابه للزجاج – المحقق: عبد الجليل عبده شلبي عالم الكتب – بيروت – الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٣١. الهداية الى بلوغ النهاية – لمكي بن أبي طالب – المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة – الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.